إبطال قول القائلين بأن النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة كان على دين المشركين

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اتَّبع هداه،

أما بعد، فقد بلغني انتشار مقالة بين بعض الشباب في القاهرة، ألا وهي قولهم: "إن النبي صلى الله عليه وسلم -قبل البعثة- كان على دين المشركين من قومه"، فلَمَّا فتَّشت عن مصدر هذه المقالة ومَن روَّج لها، وجدت أن مصدرها كتاب **"الدليل المختار على أن الاعتبار في الحكم على الرجال بالعاقبة والمآل لا بما جرى في بداية الحال"**، تأليف: الأخ عيد الكيَّال –وفَّقه الله-، فلَمَّا تصفحت الرسالة وجدته أتى بشبهات اعتبرها أدلة دامغة على قوله، ووسم من خالفها بسمات سيئة، وكأن ما ذهب إليه عقيدة لا تقبل النقاش، فتعجبت من هذه الجرأة.

ومن الأدلة على كونه صلى الله عليه وسلم كان قبل بعثته على الحنيفية –أي التوحيد- ولم يكن على دين قومه من مشركي العرب ما يلي:

أولاً: ما أخرجه البخاري (2)، ومسلم (160) من حديث عُرْوَة بْن الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ يَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ أُوْلَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فَجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ...".

قال ابن الملقن في "التوضيح شرح الجامع الصحيح" (3/251): "قولها: (فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ). هو بحاء مهملة ثمَّ نون ثمَّ مثلثة، وقد فسر في الحديث بأنه التعبد، وهو صحيح، وأصله اجتناب الحنث -وهو: الإثم- وكأنّ المتعبد يلقي بعبادته عن نفسه الإثم، وقال ابن هشام: التحنث: التحنف يبدلون الفاء من الثاء يريدون الحنيفية، وقال أبو أحمد العسكري: رواه بعضهم: يتحنف -بالفاء- ثمَّ نقل عن بعض أهل العلم أنه قَالَ: سألت أبا عمرو الشيباني عن ذَلِكَ فقال: لا أعرف يتحنث، إنما هو يتحنف من الحنيفية أي: يتتبع دين الحنيفية، وهو دين إبراهيم عليه السلام".

وقال القاضي عياض في إكمال المعلم (1/480): "واختلف الناس: هل كان متعبدًا قبل نبوته بشريعة أم لا؟ فقال بعضهم: إنه غير متعبد أصلاً، ثم اختلف هؤلاء: هل ينتفى ذلك عقلاً أم نقلاً؟ فقال بعض المبتدعة:

ينتفى عقلاً؟ لأن في ذلك تنفيرًا عنه، وغضٌّ من قدره إذا تنبَّأ عند أهل تلك الشريعة التي كان من جملتهم، ومن كان تابعاً فيبعُد منه أن يكون متبوعًا، وهذا خطأ، والعقل لا يحيل هذا.
وقال الآخرون من حذاق أهل السنة: إنما ينتفى ذلك من جهة أنه لو كان لنُقِلَ، ولتداولته الألسن، وذكر فى سيرته، فإن هذا مما جرَت العادةُ بأنه لا ينكتم.
وقال غير هاتين الطائفتين: بل هو مُتعبَّدٌ، ثم اختلفوا أيضًا: هل كان متعبداً بشريعة إبراهيم أو غيره من الرسل؟ فقيل فى ذلك أقوال، ويحتمل أن يكون المراد بقوله: {أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا} فى توحيد الله وصفاته".اهـ

ثانيًا: أخرج البخاري (1582)، ومسلم (340) من حديث عَمْرُو بْن دِينَارٍ، قَالَ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: لَمَّا بُنِيَتِ الكَعْبَةُ ذَهَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلاَنِ الحِجَارَةَ، فَقَالَ العَبَّاسُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ، فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ"، فَقَالَ: «أَرِنِي إِزَارِي» فَشَدَّهُ عَلَيْهِ.
قلت: فإن كان صلى الله عليه وسلم قد عُصِم من إظهار عورته الحسيَّة أمام الناس في الجاهلية؛ متابعة لقومه الذين كانوا لا يتحرجون من ذلك، فكيف لا يُعصَم من متابعة قومه على وثنيتهم ؟!

ثالثًا: أخرج البخاري (3826) من حديث عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، "أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلْدَحٍ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الوَحْيُ، فَقُدِّمَتْ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُفْرَةٌ، فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ مِنْهَا، ثُمَّ قَالَ زَيْدٌ: إِنِّي لَسْتُ آكُلُ مِمَّا تَذْبَحُونَ عَلَى أَنْصَابِكُمْ، وَلاَ آكُلُ إِلَّا مَا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ المَاءَ، وَأَنْبَتَ لَهَا مِنَ الأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ، إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ.
وقال أبو يعلى في مسنده (13/170)، وفي حديث محمد بن بشار بندار عن شيوخه (1) حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ، قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ بْنُ عَبْدِ الْمَجِيدِ، أَمْلَاهُ عَلَيْنَا مِنْ كِتَابِهِ، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ، وَيَحْيَى بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ، عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ، عَنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا حَارًّا مِنْ أَيَّامِ مَكَّةَ ـ وَهُوَ مُرْدِفِي ـ إِلَى نُصُبٍ مِنَ الْأَنْصَابِ، وَقَدْ ذَبَحْنَا لَهُ شَاةً فَأَنْضَجْنَاهَا، قَالَ: فَلَقِيَهُ زَيْدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ، فَحَيَّا كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ بِتَحِيَّةِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَا زَيْدُ، مَا لِي

أَرَى قَوْمَكَ قَدْ شَنِفُوا لَكَ؟»، قَالَ: وَاللَّهِ يَا مُحَمَّدُ إِنَّ ذَلِكَ لَبِغَيْرِ نَائِلَةٍ لِي مِنْهُمْ , وَلَكِنِّي خَرَجْتُ أَبْتَغِي هَذَا الدِّينَ، حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى أَحْبَارِ فَدَكٍ فَوَجَدْتُهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيُشْرِكُونَ بِهِ، قَالَ: قُلْتُ مَا هَذَا بِالدِّينِ الَّذِي أَبْتَغِي، فَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَى أَحْبَارِ الشَّامِ فَوَجَدْتُهُمْ يَعْبُدُونَ اللَّهَ وَيُشْرِكُونَ بِهِ، قُلْتُ: مَا هَذَا بِالدِّينِ الَّذِي أَبْتَغِي، فَقَالَ شَيْخٌ مِنْهُمْ: إِنَّكَ لَتَسْأَلُ عَنْ دِينٍ مَا نَعْلَمُ أَحَدًا يَعْبُدُ اللَّهَ بِهِ إِلَّا شَيْخٌ بِالْحِيرَةِ، قَالَ: فَخَرَجْتُ حَتَّى أَقْدَمَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَآنِي، قَالَ: مِمَّنْ أَنْتَ؟ قُلْتُ: مِنْ طَلَعَ نَجْمُهُ، وَجَمِيعُ مَنْ رَأَيْتُهُمْ فِي ضَلَالٍ، فَلَمْ أُحِسَّ بِشَيْءٍ بَعْدُ يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: وَقَرَّبَ إِلَيْهِ السُّفْرَةَ، قَالَ: فَقَالَ: مَا هَذَا يَا مُحَمَّدُ؟ فَقَالَ: شَاةٌ ذَبَحْنَاهَا لِنُصُبٍ مِنَ الْأَنْصَابِ، قَالَ: فَقَالَ: «مَا كُنْتُ لِآكُلَ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ»، قَالَ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ: فَأَتَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْبَيْتَ، قَالَ: وَتَفَرَّقْنَا فَطَافَ بِهِ، وَأَنَا مَعَهُ، وَبِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ.

قَالَ: وَكَانَ عِنْدَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ صَنَمَانِ مِنْ نُحَاسٍ: أَحَدُهُمَا يُقَالُ لَهُ: يَسَافٌ، وَالْآخَرُ يُقَالُ لَهُ: نَائِلَةُ، وَكَانَ الْمُشْرِكُونَ إِذَا طَافُوا تَمَسَّحُوا بِهِمَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَمْسَحْهُمَا , فَإِنَّهُمَا رِجْسٌ»، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لَأَمَسَّنَّهُمَا حَتَّى أَنْظُرَ مَا يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ , فَمَسَسْتُهُمَا، فَقَالَ: «يَا زَيْدُ، أَلَمْ تُنْهَ؟»، قَالَ: وَمَاتَ زَيْدُ بْنُ عَمْرٍو، وَأُنْزِلَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِزَيْدٍ: «إِنَّهُ يُبْعَثُ أُمَّةً وَحْدَهُ».

وأخرجه ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (1/200) (257)، والنسائي في الكبرى (7/325)، والطبراني في الكبير (5/86)، والحاكم في المستدرك (3/238) من طريق محمد بن عمرو به، وإسناده حسن.

وأخرجه البيهقي في دلائل النبوة (2/24) من طريق أبي أُسَامَةَ، قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بِهِ، وقال: زَادَ فِيهِ غَيْرُهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَمْرٍو بِإِسْنَادِهِ: قال زيد: فو الذي هُوَ أَكْرَمَهُ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ مَا اسْتَلَمَ صَنَمًا حَتَّى أَكْرَمَهُ اللهُ بِالَّذِي أكرمه وأنزل عليه.

قلت: وهذا واضح بيِّن في أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخالف دين المشركين قبل البعثة، بل ويعيب آلهتهم، **وإذا كان زيد بن عمرو بن نُفيل كان حنيفًا في الجاهلية، فكيف بسيد الحنفاء صلى الله عليه وسلم؟!**

رابعًا: قال محمد بن إسحاق في "السير والمغازي": حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، عَنْ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ، عَنْ نَافِعِ بن جُبَيرِ ابْن مُطْعِمٍ، عَنْ أَبِيهِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أَنَّهُ قَالَ: " رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَهُوَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ - يَقِفُ عَلَى بَعِيرٍ لَهُ بِعَرَفَاتٍ

مِنْ بَيْنِ قَوْمِهِ، حَتَّى يَدْفَعَ مَعَهُمْ تَوْفِيقًا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ "، وأخرجه ابن البخاري في مشيخته (3/1951) من طريق ابن إسحاق به.
وأخرجه البيهقي في "دلائل النبوه" (2/37) من طريق عُثْمَانَ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ، عَنْ نَافِعِ بْنِ جُبَيْرٍ به.
قال البيهقي: " قَوْلُهُ: «عَلَى دِينِ قَوْمِهِ» مَعْنَاهُ: عَلَى مَا كَانَ قَدْ بَقِيَ فِيهِمْ مِنْ إِرْثِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ، فِي حَجِّهِمْ وَمَنَاكِحِهِمْ وَبُيُوعِهِمْ، دُونَ الشِّرْكِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ قَطُّ.
وَفِيمَا ذَكَرْنَا مِنْ بُغْضِهِ اللَّاتَ وَالْعُزَّى دَلِيلٌ عَلَى ذَلِكَ".
قلت: يشير البيهقي إلى قوله: "وَرُوِّينَا فِي قِصَّةِ بَحِيرَاءَ الرَّاهِبِ حِينَ حَلَفَ بِاللَّاتِ وَالْعُزَّى مُتَابَعَةً لِقُرَيْشٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ،: لَا تَسْأَلْنِي بِاللَّاتِ والعزّى شيئا، فو الله مَا أَبْغَضْتُ بُغْضَهُمَا شَيْئًا قَطُّ".
قال العلامة الألباني: "وثبت في الحديث أنه كان لا يقف بالمزدلفة ليلة عرفة بل كان يقف مع الناس بـ (عرفات)"، ثم قال: "ويفهم من قوله هذا أيضًا أنه كان يقف بـ (عرفات) قبل أن يوحى إليه وهذا توفيق من الله له". قال: "وله شاهد من حديث ربيعة بن عباد رواه الطبراني (4592)".
وأخرج مسلم (1211) من حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ قُرَيْشٌ وَمَنْ دَانَ دِينَهَا يَقِفُونَ بِالْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانُوا يُسَمَّوْنَ الْحُمْسَ، وَكَانَ سَائِرُ الْعَرَبِ يَقِفُونَ بِعَرَفَةَ، فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ عَرَفَاتٍ فَيَقِفَ بِهَا، ثُمَّ يُفِيضَ مِنْهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [البقرة: 199].
وأخرج بعده عن هِشَام، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: كَانَتِ الْعَرَبُ تَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرَاةً، إِلَّا الْحُمْسَ، وَالْحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، كَانُوا يَطُوفُونَ عُرَاةً، إِلَّا أَنْ تُعْطِيَهُمُ الْحُمْسُ ثِيَابًا، فَيُعْطِي الرِّجَالُ الرِّجَالَ، وَالنِّسَاءُ النِّسَاءَ، وَكَانَتِ الْحُمْسُ لَا يَخْرُجُونَ مِنَ الْمُزْدَلِفَةِ، وَكَانَ النَّاسُ كُلُّهُمْ يَبْلُغُونَ عَرَفَاتٍ".
وأخرج البخاري (1665) عن عُرْوَة: «كَانَ النَّاسُ يَطُوفُونَ فِي الجَاهِلِيَّةِ عُرَاةً إِلَّا الحُمْسَ، وَالحُمْسُ قُرَيْشٌ وَمَا وَلَدَتْ، وَكَانَتِ الحُمْسُ يَحْتَسِبُونَ عَلَى النَّاسِ، يُعْطِي الرَّجُلُ الرَّجُلَ الثِّيَابَ يَطُوفُ فِيهَا، وَتُعْطِي المَرْأَةُ المَرْأَةَ الثِّيَابَ تَطُوفُ فِيهَا، فَمَنْ لَمْ يُعْطِهِ الحُمْسُ طَافَ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا، وَكَانَ يُفِيضُ جَمَاعَةُ النَّاسِ مِنْ عَرَفَاتٍ، وَيُفِيضُ الحُمْسُ مِنْ جَمْعٍ»، قَالَ: وَأَخْبَرَنِي أَبِي، عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا "أَنَّ هَذِهِ الآيَةَ نَزَلَتْ فِي الحُمْسِ: {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ} [البقرة: 199]، قَالَ: كَانُوا يُفِيضُونَ مِنْ جَمْعٍ، فَدُفِعُوا إِلَى عَرَفَاتٍ.
وأخرج البخاري (1664)، ومسلم (1220) من طريق مُحَمَّد بْن جُبَيْرٍ، عَنْ أَبِيهِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ: أَضْلَلْتُ بَعِيرًا لِي، فَذَهَبْتُ أَطْلُبُهُ يَوْمَ عَرَفَةَ،

فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاقِفًا بِعَرَفَةَ، فَقُلْتُ: «هَذَا وَاللَّهِ مِنَ الحُمْسِ فَمَا شَأْنُهُ هَا هُنَا».
قال ابن الجوزي في كشف مشكل الصحيحين (4/45): " كَانَت قُرَيْش وَبَنُو كنَانَة يسمون الحمس؛ لأنهم تحمَّسوا فِي دينهم: أي تشدَّدوا، والحماسة: الشدَّة فِي كل شَيْء، وَكَانُوا يقفون عَشِيَّة عَرَفَة بِالْمُزْدَلِفَةِ وَيَقُولُونَ: نَحن قطن الْبَيْت، وَكَانَ بَقِيَّة الْعَرَب وَالنَّاس يقفون بِعَرَفَات، فنزل قَوْله تَعَالَى: {ثمَّ أفيضوا من حَيْثُ أَفَاضَ النَّاس} [الْبَقَرَة: 199]، وَهَذِه الْآيَة نزلت فِي الْإِسْلَام وَذَاكَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّة، وَهَذَا الرجل إِنَّمَا رأى رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم فِي الْجَاهِلِيَّة، فَكَأَن رَسُول الله صلى الله عَلَيْهِ وَسلم خَالف قومه فِي هَذَا مَعَ مَا خَالف".
قلت: تأمل قوله: "خَالف قومه فِي هَذَا مَعَ مَا خَالف"، أي" أنه خالف قومه في مسائل عدة في العقيدة والعبادة، فكيف يقال: إنه كان على دينهم الوثني؟ اللهم غفرًا !

خامسًا: أخرج ابن حبان (2093/موارد) من حديث الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ الْفَزَارِي قَالَ: سَمعتُ رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: "إِنِّي عَبْدُ اللَه، مَكْتُوبٌ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ آدَمُ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ بِأَوَّلِ ذلِكَ: دَعْوَةُ إِبْرَاهِيم وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأتْ حِينَ وَضَعَتْنِي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ لَهَا مِنْهُ قُصُورُ الشَّامَ".
وأخرج أبو داود الطيالسي (1236) من حديث أَبِي أُمَامَةَ، قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا كَانَ بَدْءُ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ وَبُشْرَى عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا، وَرَأَتِ أُمِّي أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهُ قُصُورُ الشَّام»[1].
وقال الإمام أحمد في مسنده (24/202) حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا مَنْصُورُ بْنُ سَعْدٍ، عَنْ بُدَيْلٍ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ، عَنْ مَيْسَرَةَ الْفَجْرِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَتَى كُتِبْتَ نَبِيًّا؟ قَالَ: " وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ"[2].

---

[1] (?) وصحَّح الحديث بروايتيه: العلامة الألباني في موارد الظمآن (6/434)، والصحيحة (1546، 1925).
وانظر الضعيفة (5/103-104).

[2] (?) حديث صحيح، وحدث في طرقه نوع اضطراب، كما في العلل للدارقطني (14/74)، لكن أمكن الترجيح بينها، وسلم إحدى طرقه وصحَّ الحديث، وقد صحَّحه العلامة الألباني في الصحيحة (1856).
وصححه كذلك الشيخ مقبل بن هادي في "الصحيح المسند لما ليس في الصحيحين" (2/1146)، وأعلَّ في "أحاديث معلَّة ظاهرها الصحة" (462) حديث الوَلِيد بن مُسْلِمٍ عَن الأَوْزَاعِيِّ عَن يَحْيَى بنِ أَبِي كَثِيرٍ عَن أَبِي سَلَمَةَ عَن أَبِي

وبـوَّب الآجـري على الحـديث في الشـريعة (3/1405): "بَـابُ ذِكْـرِ مَتَى وَجَبَتِ النُّبُوَّةُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ".

وقـال أبـو بكـر الخلاّل في السـنة (200) أَخْبَـرَنِي حَـرْبُ بْنُ إِسْـمَاعِيلَ الْكَرْمَانِيُّ، قَـالَ: قُلْتُ لِإِسْـحَاقَ يَعْنِي ابْنَ رَاهَوَيْـهِ: حَـدِيثُ مَيْسَـرَةَ الْفَجْـرِ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُـولَ اللَّهِ صَـلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ، مَتَى كُنْتَ نَبِيًّا؟ قَـالَ: «وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ»، مَا مَعْنَاهُ؟ قَـالَ: «قَبْـلَ أَنْ تُنْفَخَ فِيـهِ الـرُّوحُ، وَقَدْ خُلِقَ».

وقال ابن بطـة في الإبانـة الكـبرى (3/221): "وَهَـذَا يَعْنِي انـه سـبق فِي علم الله تَعَالَى قبل أَن يخلق نبيه وَكتب عِنْده فِي أم الْكتاب إنه نَبِيٌّ هَذِه الْأمة ثمَّ خلقـه اللـه عـز وَجـل نَبيًّا مُرْسلاً، كَمَـا علم أزلاً فَالْحَـدِيث دَلِيـل صَرِيح فِي إِثْبَات الْقدر".

وقال الطحاوي في شرح مشكل الآثار (15/231): "فَكَذَلِكَ آدَمُ لَمَّا كَـانَ فِي الْبَدْءِ جِسْمًا لَا رُوحُ فِيهِ، ثُمَّ أَعَادَهُ اللـهُ جَسَـدًا ذَا رُوحٍ، كَـانَ مَوْصُـوفًا بِوَجْهَيْنِ مُخْتَلِفَيْنِ، وَجَازَ بِذَلِكَ إِدْخَالُ: بَيْنَ، فِي وَصْـفِهِ، كَمَـا جَـاءَ الْحَـدِيثُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ فِي ذَلِكَ. وَأَمَّا قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: " كُنْتُ نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ "، فَإِنَّهُ، وَإِنْ كَانَ حِينَئِذٍ نَبِيًّا، فَقَدْ كَانَ اللهُ تَعَـالَى كَتَبَـهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ نَبِيًّا، ثُمَّ أَعَادَ اكْتِتَابَهُ إِيَّاهُ فِي الْوَقْتِ الْمَذْكُورِ فِي هَـذَا

هُرَيْرَةَ: قالَ: "قـالُوا يـا رَسُـولَ اللَّهِ مَتَى وَجَبَتْ لَـكَ النُّبُـوَّةُ؟ قـالَ وَآدَمُ بَيْنَ الـرُّوحِ وَالْجَسَدِ".

وقد قال فيه الإمام أحمد: هذا حديث منكر.

وقال: هذا من خطأ الأوزاعي. وهو كثيرًا مـا يخطئ في يحـيى بن أبي كثـير"، كمـا في "شرح علل الترمذي" لابن رجب (346)، "علـل المـرُّوذي" (268)، "المنتخب من العلل للخلال" (93).

وقـال شـيخ الإسـلام كمـا في مجمـوع الفتـاوى (2/147): "هَكَـذَا لَفْـظُ الْحَـدِيثِ الصَّحِيحِ، وَأَمَّا مَا يَرْوِيه هَؤُلَاءِ الْجُهَّالُ: كَابْنِ عَـرَبِيٍّ فِي الْفُصُـوصِ وَغَيْـرِهِ مِنْ جُهَّالِ الْعَامَّةِ {كُنْت نَبِيًّا وَآدَمُ بَيْنَ الْمَـاءِ وَالطِّينِ كُنْت نَبِيًّا وَآدَمُ لَا مَـاءَ وَلَا طِينَ}، فَهَـذَا لَا أَصْلَ لَهُ وَلَمْ يَرْوِهِ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ الصَّـادِقِينَ وَلَا هُـوَ فِي شَـيْءٍ مِنْ كُتُبِ الْعِلْمِ الْمُعْتَمَدَةِ بِهَذَا اللَّفْظِ بَلْ هُوَ بَاطِلٌ فَإِنَّ آدَمَ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ قَطُّ فَإِنَّ اللَّهَ خَلَقَـهُ مِنْ تُـرَابٍ وَخَلَـطَ التُّرَابَ بِالْمَـاءِ حَتَّى صَارَ طِينًا؛ وَأَيْبَسَ الطِّينَ حَتَّى صَـارَ صَلْصَالًا كَالْفَخَّارِ فَلَمْ يَكُنْ لَهُ حَالٌ بَيْنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ مُرَكَّبٌ مِنْ الْمَـاءِ وَالطِّينِ وَلَـوْ قِيلَ بَيْنَ الْمَاءِ وَالتُّرَابِ لَكَانَ أَبْعَدَ عَنْ الْمُحَالِ مَـعَ أَنَّ هَـذِهِ الْحَـالَ لَا اخْتِصَـاصَ لَهَـا وَإِنَّمَا قَالَ {بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ} وَقَـالَ {وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَـدِلٌ فِي طِينَتِـهِ} لِأَنَّ جَسَـدَ آدَمَ بَقِيَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَبْلَ نَفْخِ الرُّوحِ فِيهِ كَمَا قَالَ تَعَـالَى: {هَـلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَـانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ} الْآيَةَ: وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِذْ قَـالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَـةِ إنِّي خَـالِقٌ بَشَـرًا مِنْ صَلْصَالٍ} الْآيَتَيْنِ. وَقَالَ تَعَالَى: {الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَـهُ وَبَـدَأَ خَلْـقَ الْإِنْسَـانِ مِنْ طِينٍ} الْآيَتَيْنِ وَقَالَ تَعَالَى: {إذْ قَالَ رَبُّك لِلْمَلَائِكَـةِ إنِّي خَـالِقٌ بَشَـرًا مِنْ طِينٍ} الْآيَـةَ. وَالْأَحَـادِيثُ فِي خَلْـقِ آدَمَ وَنَفْخِ الـرُّوحِ فِيـهِ مَشْـهُورَةٌ فِي كُتُبِ الْحَـدِيثِ وَالتَّفْسِيرِ وَغَيْرِهِمَا".

الْحَدِيثِ، كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ} [الأنبياء: 105] ، وَكَانَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ كَتَبَ ذَلِكَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، ثُمَّ أَعَادَ اكْتِتَابَهُ فِي الزَّبُورِ الْمُحَزَّبَةِ بَعْدَ ذَلِكَ، فَمِثْلُ ذَلِكَ اكْتِتَابُهُ عَزَّ وَجَلَّ النَّبِيَّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ، بَعْدَ اكْتِتَابِهِ إِيَّاهُ قَبْلَ ذَلِكَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ أَنَّهُ كَذَلِكَ، وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ".
وقال الحافظ ابن رجب في "لطائف المعارف" (ص80): "ومن جملة ما كتبه في هذا الذكر وهو أم الكتاب: أن محمدًا خاتم النبيين.
ومن حينئذ انتقلت المخلوقات من مرتبة العلم إلى مرتبة الكتابة وهو نوع من أنواع الوجود الخارجي، ولهذا قال سعيد بن راشد سألت عطاء: هل كان النبي صلى الله عليه وسلم نبيًّا قبل أن يخلق؟ قال: إي والله وقبل أن تخلق الدنيا بألفي عام، خرّجه أبو بكر الآجري في كتاب الشريعة وعطاء ـ الظاهر أنه ـ الخرساني وهذا إشارة إلى ما ذكرنا من كتابة نبوته صلى الله عليه وسلم في أم الكتاب عند تقدير المقادير وقوله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث: "إني عبد الله في أم الكتاب لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته" ليس المراد به والله أعلم أنه حينئذ كتب في أم الكتاب ختمه للنبيين وإنما المراد الإخبار عن كون ذلك مكتوبا في أم الكتاب في تلك الحال قبل نفخ الروح في آدم وهو أول ما خلق من النوع الإنساني.
وجاء في أحاديث أخر أنه في تلك الحال وجبت له النبوة وهذه مرتبة ثالثة وهي انتقاله من مرتبة العلم والكتابة إلى مرتبة الوجود العيني الخارجي فإنه صلى الله عليه وسلم استخرج حينئذ من ظهر آدم ونبىء فصارت نبوته موجودة في الخارج بعد كونها كانت مكتوبة مقدرة في أم الكتاب ...
قال الإمام أحمد في رواية مهنَّا: وبعضهم يرويه: متى كتبت نبيًّا؟ من الكتابة فإن صحت هذه الرواية حملت مع حديث العرباض بن سارية على وجوب نبوته وثبوتها وظهورها في الخارج فإن الكتابة إنما تستعمل فيما هو واجب: إما شرعًا كقوله تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ} [البقرة: 183] أو قدرًا كقوله تعالى: {كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: 21] وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنهم قالوا: يا رسول الله متى وجبت لك النبوة؟ قال: "وآدم بين الروح والجسد"، خرَّجه الترمذي وحسَّنه وفي نسخه صححه وخرجه الحاكم وروى ابن سعد من رواية جابر الجعفي عن الشعبي قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم: متى استنبئت؟ قال: "وآدم بين الروح والجسد حيث أخذ مني الميثاق"، وهذه الرواية تدل على أنه صلى الله عليه وسلم حينئذ استخرج من ظهر آدم ونبىء وأخذ ميثاقه فيحتمل أن يكون ذلك دليلاً على أن استخراج ذرية آدم من ظهره وأخذ الميثاق منهم

كان قبل نفخ الروح في آدم وقد روي هـذا عن سـلمان الفارسـي وغـيره من السلف ويسـتدل لـه أيضـا بظـاهر قولـه تعـالى: {وَلَقَـدْ خَلَقْنَـاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}، [الأعراف: 11] على ما فسـره به مجاهد وغيره: أن المراد: إخراج ذرية آدم من ظهره قبل أمر الملائكـة بالسجود له ولكن أكثر السلف على أن استخراج ذرية آدم منـه كـان بعـد نفخ الروح فيه وعلى هذا يدل أكثر الأحاديث فتحمـل على هـذا أن يكـون محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم خص باسـتخراجه من ظهـر آدم قبـل نفخ الروح فيه فإن محمدًا صلى الله عليه وسلم هو المقصود من خلق النــوع الإنساني وهو عينه وخلاصته وواسطة عقده فلا يبعد أن يكـون أخـرج من ظهر آدم عند خلقه قبل نفخ الروح فيه...."، ثم قال: " وقد استدل الإمام أحمـد بحـديث العربـاض بن سـارية هـذا على أن النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم لم يزل على التوحيد منذ نشأ ورد بذلك على من زعم غير ذلك بل قد يستدل بهذا".

سادسًا: قال الإمام مسـلم في صـحيحه (162) حَـدَّثَنَا شَـيْبَانُ بْنُ فَـرُّوخَ، حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، حَدَّثَنَا ثَابِتٌ الْبُنَـانِيُّ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِـكٍ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَتَاهُ جِبْرِيلُ صَلَّى اللـهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ وَهُـوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْـتَقْبَلُوهُ وَهُـوَ مُنْتَقِـعُ اللَّوْنِ "، قَالَ أَنَسٌ: «وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ».
قلت: فكيف يقع صلى الله عليه وسلم في الشرك والكفر، وقد اسـتُخرِج من قلبه حظُّ الشيطان وهو غلام قبل أن يصير مكلَّفًا ؟!
قال القاضي عياض في "إكمال المعلم بفوائد مسلم" (1/505): "وقوله فى شرح صدره: "فاستخرج منه علقةً، وقال هذا حـظُّ الشـيطان منـك": دليل بَيِّنٌ على عصمة نبينا من الشيطان، وكفايته إياه أن يُسَـلَّط عليـه، لا فى علمه ولا يقينه، ولا جسمه ولا شىء من أمره، لا بـالأذى والوسـاوس ولا غيره، وقد ادَّعى بعض العلماء الإجماع على ذلك".
وقال شرف الدين الطِّيبي في شرحه على مشكاة المصـابيح: "الكشَّـاف عن حقائق السنن" (12/3370): "والعلقـة في الإنسـان أصـل المفاسـد والمعاصى، ولذلك قال جبريل عليه السلام بعـد مـا أخرجهـا: ((هـذا حـظ الشيطان منك)) فعصمه من آفته وطغمـه، كمـا أسـلم لـه شـيطانه على يده، قدر الله تعالى في سابقة لطفه أن يخرج حظ الشيطان منه، فجعله قدسيًّا طاهر الأصل والعنصر منور القلب مقدس الجسم مسـتعدًا لقبـول الوحي السماوي والفيض الإلهي، لا تتطرق إليه هواجس النفس".

قلت: وقد وقع شرح الصدر له صلى الله عليه وسلم مرتين أخريين بعد ذلك: الأولى: قبل البعثة، والثانية: قبل العروج إلى السماء.
قال علي الإثيوبي في "ذخيرة العقبى شرح المجتبى" (6/28): "وكان هذا في زمن الطفولية، فنشأ على أكمل الأحوال من العصمة من الشيطان، ثم وقع شق الصدر عند البعث زيادة في إكرامه ليتلقَّى ما يوحى إليه بقلب قوي في أكمل الأحوال من التطهير، ثم وقع شق الصدر عند إرادة العروج إلى السماء، ليتأهب للمناجاة".

سابعًا: قال الترمذي في الجامع (3620 - حَدَّثَنَا الفَضْلُ بْنُ سَهْلٍ أَبُو العَبَّاسِ الأَعْرَجُ البَغْدَادِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ غَزْوَانَ قَالَ: أَخْبَرَنَا يُونُسُ بْنُ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ أَبِي بَكْرِ بْنِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: «خَرَجَ أَبُو طَالِبٍ إِلَى الشَّامِ وَخَرَجَ مَعَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَشْيَاخٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا أَشْرَفُوا عَلَى الرَّاهِبِ هَبَطُوا فَحَلُّوا رِحَالَهُمْ، فَخَرَجَ إِلَيْهِمُ الرَّاهِبُ وَكَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ يَمُرُّونَ بِهِ فَلَا يَخْرُجُ إِلَيْهِمْ وَلَا يَلْتَفِتُ». قَالَ: " فَهُمْ يَحُلُّونَ رِحَالَهُمْ، فَجَعَلَ يَتَخَلَّلُهُمُ الرَّاهِبُ حَتَّى جَاءَ فَأَخَذَ بِيَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: هَذَا سَيِّدُ العَالَمِينَ، هَذَا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ، يَبْعَثُهُ اللَّهُ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ "، فَقَالَ لَهُ أَشْيَاخٌ مِنْ قُرَيْشٍ: مَا عِلْمُكَ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ حِينَ أَشْرَفْتُمْ مِنَ العَقَبَةِ لَمْ يَبْقَ شَجَرٌ وَلَا حَجَرٌ إِلَّا خَرَّ سَاجِدًا وَلَا يَسْجُدَانِ إِلَّا لِنَبِيٍّ، وَإِنِّي أَعْرِفُهُ بِخَاتَمِ النُّبُوَّةِ أَسْفَلَ مِنْ غُضْرُوفِ كَتِفِهِ مِثْلَ التُّفَّاحَةِ، ثُمَّ رَجَعَ فَصَنَعَ لَهُمْ طَعَامًا، فَلَمَّا أَتَاهُمْ بِهِ وَكَانَ هُوَ فِي رِعْيَةِ الإِبِلِ، قَالَ: أَرْسِلُوا إِلَيْهِ، فَأَقْبَلَ وَعَلَيْهِ غَمَامَةٌ تُظِلُّهُ، فَلَمَّا دَنَا مِنَ القَوْمِ وَجَدَهُمْ قَدْ سَبَقُوهُ إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ، فَلَمَّا جَلَسَ مَالَ فَيْءُ الشَّجَرَةِ عَلَيْهِ، فَقَالَ: انْظُرُوا إِلَى فَيْءِ الشَّجَرَةِ مَالَ عَلَيْهِ، قَالَ: فَبَيْنَمَا هُوَ قَائِمٌ عَلَيْهِمْ وَهُوَ يُنَاشِدُهُمْ أَنْ لَا يَذْهَبُوا بِهِ إِلَى الرُّومِ، فَإِنَّ الرُّومَ إِنْ رَأَوْهُ عَرَفُوهُ بِالصِّفَةِ فَيَقْتُلُونَهُ، فَالتَفَتَ فَإِذَا بِسَبْعَةٍ قَدْ أَقْبَلُوا مِنَ الرُّومِ فَاسْتَقْبَلَهُمْ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكُمْ؟ قَالُوا: جِئْنَا، إِنَّ هَذَا النَّبِيَّ خَارِجٌ فِي هَذَا الشَّهْرِ، فَلَمْ يَبْقَ طَرِيقٌ إِلَّا بُعِثَ إِلَيْهِ بِأُنَاسٍ وَإِنَّا قَدْ أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ فَبُعِثْنَا إِلَى طَرِيقِكَ هَذَا، فَقَالَ: هَلْ خَلْفَكُمْ أَحَدٌ هُوَ خَيْرٌ مِنْكُمْ؟ قَالُوا: إِنَّمَا أُخْبِرْنَا خَبَرَهُ بِطَرِيقِكَ هَذَا. قَالَ: أَفَرَأَيْتُمْ أَمْرًا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَقْضِيَهُ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ رَدَّهُ؟ قَالُوا: لَا، قَالَ: فَبَايَعُوهُ وَأَقَامُوا مَعَهُ قَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللَّهِ أَيُّكُمْ وَلِيُّهُ؟ قَالُوا: أَبُو طَالِبٍ، فَلَمْ يَزَلْ يُنَاشِدُهُ حَتَّى رَدَّهُ أَبُو طَالِبٍ وَبَعَثَ مَعَهُ أَبُو بَكْرٍ بِلَالًا وَزَوَّدَهُ الرَّاهِبُ مِنَ الكَعْكِ وَالزَّيْتِ".
وأخرجه ابن أبي شيبة في مصنّفه (7/327)، والحاكم في مستدركه (2/672)، ومحمد بن طلحة أبو الحسن النعالي الرافضي (77).
قال الترمذي: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الوَجْهِ».

وقال الألباني في "صحيح السيرة النبوية" (ص30): "فيه من الغرائب أنه من مرسلات الصحابة فإن أبا موسى الأشعري إنما قدم في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة فهو مرسل فإن هذه القصة كانت ولرسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر فيما ذكره بعضهم ثنتا عشرة سنة ولعل أبا موسى تلقاه من النبي صلى الله عليه وسلم فيكون أبلغ أو من بعض كبار الصحابة رضي الله عنهم أو كان هذا مشهورا مذكورا أخذه من طريق الاستفاضة".

وجاء في ضعيف الترمذي: "صحيح.. لكن ذكر بلال فيه منكر".

قلت: والشاهد منه بيّن في كونه صلى الله عليه وسلم كانت علامات النبوة ظاهرة عليه قبل البعثة، **فكيف تظهر علامات النبوة عليه وهو على دين المشركين؟!**

قلت: وقد اشتبهت آياتان على القائلين بهذا القول، هما:

- **الآية الأولى: اشتباه قول الله تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} [الشورى: 51]:**

قال محيي السنة الحسين بن مسعود البغوي (ت 516 ه) في تفسيرة "معالم التنزيل" (7/201/ط دار طيبة):

"{مَا كُنْتَ تَدْرِي} قَبْلَ الْوَحْيِ نزيل": {مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ} يَعْنِي شَرَائِعَ الْإِيمَانِ وَمَعَالِمَهُ، قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ: "الْإِيمَانُ" فِي هَذَا الْمَوْضِعِ: الصَّلَاةُ، وَدَلِيلُهُ: قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: "وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ" (الْبَقَرَةِ 143).

وَأَهْلُ الْأُصُولِ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَانُوا مُؤْمِنِينَ قَبْلَ الْوَحْيِ، وَكَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْبُدُ اللَّهَ قَبْلَ الْوَحْيِ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ، وَلَمْ يَتَبَيَّنْ لَهُ شَرَائِعُ دِينِهِ".

وقال الحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت 774 ه) في "تفسير القرآن العظيم" (4/217): "وَقَوْلُهُ {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا} يَعْنِي: الْقُرْآنَ، {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإيمَانُ} أَيْ: عَلَى التَّفْصِيلِ الَّذِي شُرِعَ لَكَ فِي الْقُرْآنِ".

وقال القرطبي في "الجامع الأحكام القرآن"(18/514): "إِذَا تَقَرَّرَ هَذَا فَاعْلَمْ أَنَّ الْعُلَمَاءَ اخْتَلَفُوا فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: "مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ". فَقَالَ جَمَاعَةٌ: مَعْنَى الْإِيمَانِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ شَرَائِعُ الْإِيمَانِ وَمَعَالِمُهُ، ذَكَرَهُ الثَّعْلَبِيُّ. وَقِيلَ: تَفَاصِيلُ هَذَا الشَّرْعِ، أَيْ كُنْتَ غَافِلًا عَنْ هَذِهِ التَّفَاصِيلِ. وَيَجُوزُ إِطْلَاقُ لَفْظِ الْإِيمَانِ عَلَى تَفَاصِيلِ الشَّرْعِ، ذَكَرَهُ الْقُشَيْرِيُّ: وَقِيلَ: مَا كُنْتَ تَدْرِي قَبْلَ الْوَحْيِ أَنْ تَقْرَأَ الْقُرْآنَ، وَلَا كَيْفَ تَدْعُو الْخَلْقَ إِلَى الْإِيمَانِ، وَنَحْوَهُ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ. وَقَالَ بَكْرٌ الْقَاضِي:

وَلَا الْإِيمَانُ الَّذِي هُوَ الْفَرَائِضُ وَالْأَحْكَامُ. قَالَ: وَكَانَ قَبْلُ مُؤْمِنًا بِتَوْحِيدِهِ ثُمَّ نَزَلَتِ الْفَرَائِضُ الَّتِي لَمْ يَكُنْ يَدْرِيهَا قَبْلُ، فَزَادَ بِالتَّكْلِيفِ إِيمَانًا. وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الْأَرْبَعَةُ مُتَقَارِبَةٌ. وَقَالَ ابْنُ خُزَيْمَةَ: عَنَى بِالْإِيمَانِ الصَّلَاةَ، لِقَوْلِهِ تَعَالَى" وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ" [البقرة: 143] أَيْ صَلَاتَكُمْ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَيَكُونُ اللَّفْظُ عَامًّا وَالْمُرَادُ الْخُصُوصُ. وَقَالَ الْحُسَيْنُ بْنُ الْفَضْلِ: أَيْ مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا أَهْلَ الْإِيمَانِ. وَهُوَ مِنْ بَابِ حَذْفِ الْمُضَافِ، أَيْ مَنِ الَّذِي يُؤْمِنُ؟ أَبُو طَالِبٍ أَوِ الْعَبَّاسُ أَوْ غَيْرُهُمَا. وَقِيلَ: مَا كُنْتَ تَدْرِي شَيْئًا إِذْ كُنْتَ فِي الْمَهْدِ وَقَبْلَ الْبُلُوغِ. وَحَكَى الْمَاوَرْدِيُّ نَحْوَهُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عِيسَى قَالَ: مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ لَوْلَا الرِّسَالَةُ، وَلَا الْإِيمَانُ لَوْلَا الْبُلُوغُ. وَقِيلَ: مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ لَوْلَا إِنْعَامُنَا عَلَيْكَ، وَلَا الْإِيمَانُ لَوْلَا هِدَايَتُنَا لَكَ، وَهُوَ مُحْتَمَلٌ. وَفِي هَذَا الْإِيمَانِ وَجْهَانِ: أَحَدُهُمَا أَنَّهُ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ، وَهَذَا يَعْرِفُهُ بَعْدَ بُلُوغِهِ وَقَبْلَ نُبُوَّتِهِ. وَالثَّانِي- أَنَّهُ دِينُ الْإِسْلَامِ، وَهَذَا لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا بعد النبوة.

قلت: إِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مُؤْمِنًا بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مِنْ حِينِ نَشَأَ إِلَى حِينِ بُلُوغِهِ، عَلَى مَا تَقَدَّمَ.

وَقِيلَ:" مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ" أَيْ كُنْتَ مِنْ قَوْمٍ أُمِّيِّينَ لَا يَعْرِفُونَ الْكِتَابَ وَلَا الْإِيمَانَ، حَتَّى تَكُونَ قَدْ أَخَذْتَ مَا جِئْتَهُمْ بِهِ عَمَّنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ، وهو كقوله تعالى:" وَما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ" [العنكبوت: 48] رُوِيَ مَعْنَاهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا." وَلكِنْ جَعَلْناهُ" قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالضَّحَّاكُ: يَعْنِي الْإِيمَانَ. السُّدِّيُّ: الْقُرْآنُ. وَقِيلَ الْوَحْيُ، أَيْ جَعَلْنَا هَذَا الْوَحْيَ" نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشاءُ" أَيْ مَنْ نَخْتَارُهُ لِلنُّبُوَّةِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى:" يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ" [آل عمران: 74]. ووحد الكناية لِأَنَّ الْفِعْلَ فِي كَثْرَةِ أَسْمَائِهِ بِمَنْزِلَةِ الْفِعْلِ فِي الِاسْمِ الْوَاحِدِ، أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: إِقْبَالُكَ وَإِدْبَارُكَ يُعْجِبُنِي، فَتَوَحَّدَ، وَهُمَا اثْنَانِ".

وقال أثير الدين أبو حيَّان محمد بن يوسف بن حيَّان (ت 745 ه) في البحر المحيط (19/57/الرسالة العالمية): "مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ: تَوْقِيفٌ عَلَى عِظَمِ الْمِنَّةِ، وَهُوَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَمُ النَّاسِ بِهَا، وَعَطَفَ وَلَا الْإِيمَانُ عَلَى مَا الْكِتَابُ، وَإِنَّمَا مَعْنَاهُ: الْإِيمَانُ الَّذِي يُدْرِكُهُ السَّمْعُ، لِأَنَّ لَنَا أَشْيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ لَا تُعْلَمُ إِلَّا بِالْوَحْيِ. أَمَّا تَوْحِيدُ اللَّهِ وَبَرَاءَتُهُ عَنِ النَّقَائِصِ، وَمَعْرِفَةُ صِفَاتِهِ الْعُلَا، فَجَمِيعُ الْأَنْبِيَاءُ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَالِمُونَ ذَلِكَ، مَعْصُومُونَ أَنْ يَقَعَ مِنْهُمْ زَلَلٌ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ، سَابِقٌ لَهُمْ عِلْمُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُوحِيَ إِلَيْهِمْ. وَقَدْ أَطْلَقَ الْإِيمَانَ عَلَى الصَّلَاةِ فِي قَوْلِهِ: {وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ}، إِذْ هِيَ بَعْضُ مَا يَتَنَاوَلُهُ الْإِيمَانُ. وَمَنْ طَالَعَ سِيَرَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ نَشْأَتِهِمْ إِلَى مَبْعَثِهِمْ، تَحَقَّقَ عِنْدَهُ أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ كُلِّ نَقِيصَةٍ، مُوَحِّدُونَ لِلَّهِ منذ نشأوا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي

حَـقِّ يَحْيَى عَلَيْـهِ السَّـلَامُ: {وَآتَيْنـاهُ الْحُكْمَ صَـبِيًّا} قَـالَ مَعْمَـرٌ: كَـانَ ابْنَ سَـنَتَيْنِ أَوْ ثَلَاثٍ. وَعَنْ أَبِي الْعَالِيَـةِ: مَـا كُنْتَ تَـدْرِي قَبْـلَ الْـوَحْيِ أَنْ تَقْـرَأَ الْقُرْآنَ، وَلَا كَيْفَ تَدْعُو الْخَلْـقَ إِلَى الْإِيمَـانِ. وَقَـالَ الْقَاضِـي: وَلَا الْإِيمَـانُ: الْفَرَائِضُ وَالْأَحْكَامُ. قَالَ: وَكَانَ قَبْلُ مُؤْمِنًا بِتَوْحِيدِ اللَّهِ، ثُمَّ نزلت الفـرائض التي لَمْ يَكُنْ يَدْرِيهَا قَبْـلُ، فَـزَادَ بِـالتَّكْلِيفِ إِيمَانًـا. وَقَـالَ الْقُشَـيْرِيُّ: يَجُـوزُ إِطْلَاقُ الْإِيمَانِ عَلَى تَفَاصِيلِ الشَّرْعِ. وَقَالَ الْحُسَـيْنُ بْنُ الْفَضْـلِ: هُـوَ عَلَى حَذْفِ مُضَافٍ، أَيْ وَلَا أَهْلُ الْإِيمَانِ مِنَ الَّذِي يُؤْمِنُ أَبُو طَالِبٍ أَوِ الْعَبَّاسُ أَوْ غَيْرُهُمَا. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عِيسَى: إِذْ كُنْتَ فِي الْمَهْدِ.
وَقِيلَ: مَا الْكِتَابُ لَوْلَا إِنْعَامُنَا عَلَيْكَ، وَلَا الْإِيمَانُ لَوْلَا هِدَايَتُنَا لَكَ. وَقِيـلَ: أَيْ كُنْتَ مِنْ قَـوْمٍ أُمِّيِّينَ لَا يَعْرِفُـونَ الْإِيمَـانَ وَلَا الْكِتَـابَ، فَتَكُـونُ أَخَـذْتَ مَـا جِئْتَهُمْ بِهِ عَمَّنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُمْ".
قلت: وأبـو حيَّان كـان يميـل إلى أهـل الظـاهر، كمـا ذكـر هـذا تلميـذه الإسنوي كما في طبقات الشافعية (1/219)، بل صـرَّح بسـلوكه طريقـة أهل الظاهر في تفسيره، كما في مقدّمتـه على البحـر المحيـط (1/10)، حيث قال: "وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريبًـا أو خلاف مشـهور مـا قـال معظم النـاس، بادئًا بمقتضـى الـدليل ومـا دلَّ عليـه ظـاهر اللفـظ؛ مرجحًا له بذلك ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه".
وقال الواحدي في "التفسير البسيط" (19/542): "قوله تعالى:}ما كنت تدري ما الكتاب{ قبل الوحي: }ولا الإيمان{ اختلفوا في هـذا مـع اجمـاع أرباب الأصـول على أنـه لا يجـوز على الرسـل قبـل الـوحي أن لا يكونـوا مؤمنين، فذهب كثير من أهل العلم الى أن المراد بالإيمان هاهنا شـرائعه و معالمه، وهي كلما يجوز أن يسمى إمانًا، واحتار إمـام الأئمـة محمـد بن إسـحاق بن خزيمـة هـذا القـول، وخصَّـه بالصـلاة محتَّجًـا من بـاب حـذف المضاف فجعل التقدير: ولا دعوة الإيمان؛ لأنه كان قبـل الـوحي مـا كـان يقدر مـا الكتـاب و لا أهـل الإيمـان يعـني: من الـذي يـؤمن ومن الـذي لا يؤمن". **وهذا اختيار الحسين بن الفضل.**
وجعل أبو العالية التقدير: ولا دعوة الإيمان؛ لأنه كان قبل الوحي مـا كـان يقدر أن يدعو إلى الإيمان بالله. وذهب بعض أهل المعاني إلى التخصيص بالوقف فقال: المعنى: ولا ما الإيمان قبل البلوغ، وهذا المذهب هو اختيار شيخنا أبي إسـحاق الإسـفراييني -رحمـه اللـه- فقـد حكى بعض أصـحابنا الكبار أنه سأله عن هذه الآية فقال: يعني حين كان في المهد وقـالوا: إن محمدًا صلى الله عليه وسلم قبل الوحي كان يعبد اللـه على دين عيسـى و الصحيح أنه كان يعبد الله على دين إبراهيم".اهـ
وقال ابن جرير في "جامع البيان" (20/542): "وقوله:}مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ{ يقول جلّ ثناؤه لنبيّه محمد صـلى اللـه عليـه وسـلم: "ما كنت تدري يا محمد أيّ شيء الكتاب ولا الإيمان اللّذين أعطيناكهما".

- **الآية الثانية: اشتباه قوله تعالى: {وَوَجَـدَكَ ضَـالًّا فَهَـدَى} [الضحى: 7]:**

قال شيخ المفسِّرين محمـد بن جريـر الطـبري –رحمـه اللـه- في "جـامع البيان" (24/489): "{وَوَجَدَكَ ضَـالًّا فَهَـدَى} [الضـحى: 7] وَوَجَـدَكَ عَلَى غَيْرِ الَّذِي أَنْتَ عَلَيْهِ الْيَوْمَ.
وَقَالَ السُّدِّيُّ فِي ذَلِكَ مَا حَدَّثَنَا ابْنُ حُمَيْدٍ، قَالَ: ثنـا مِهْـرَانُ، عَنِ السُّـدِّيِّ، {وَوَجَدَكَ ضَـالًّا} [الضـحى: 7] قَـالَ: كَـانَ عَلَى أَمْـرِ قَوْمِـهِ أَرْبَعِينَ عَامًـا.
وَقِيلَ: عُنِيَ بِذَلِكَ: وَوَجَدَكَ فِي قَوْمٍ ضُلَّالٍ فَهَدَاكَ".
قلت: قال عيـد الكيَّال في كتابـه "الـدليل المختـار على أن الاعتبـار في الحكم على الرجال بالعاقبة والمـآل لا بمـا جـرى في بدايـة الحـال" (ص 37): "ولم يذكر شيخ المفسِّرين غـير هـذين القـولين؛ أسـند الأول، وهـو قول السُّدِّي، وضعَّف الثـاني بقولـه: وقيـل، وهـذا يُسـتَنبَط منـه ترجيحـه للقول الأول، الذي يعني:
ما قاله القرطبي في الجامع لأحكام القرآن (20/70) عنـد الآيـة: "وقـال الكلـبي والسُّـدِّي: وهـذا على ظـاهره؛ أي: وجـدك كـافرًا والقـوم كفَّار فهداك".اهـ
قلت: ابْنُ حُمَيْدٍ، هو محمد بن حُمَيْد بن حَيّان، أبو عبد الله الرازي.
قال فيه البخاري: فيه نظر، وكذبه أبو زرعة، وقال ابن خراش: حدثنا ابن حميد - وكان والله يكذب.
وجاء عن غير واحد أن ابن حميد كـان يسـرق الحـديث. وقـال النسـائي: ليس بثقة.
وقــال صــالح جــزرة: مــا رأيت أحــذق بالكــذب من ابن حميــد ومن ابن الشاذكونى.
وقال أبو على النيسابوري: قلت لابن خزيمة: لـو أخـذت الإسـناد عن ابن حميد! فإن أحمد بن حنبل قد أحسن الثناء عليه! قال: إنه لم يعرفه، ولـو عرفه كما عرفناه ما أثنى عليه أصلاً.
قلت: وعليه فهـذا إسـناد ضـعيف جـدًّا إلى السُّـدِّي، فلا تصـح نسبته إليه، وعهدته بريئة منه.
وأما الكلبي فقد عزا القرطبي هذا القول إليه دون إسناد، فلا حجة فيه.
وأما استنباط الكيَّال بـأن الطـبري يـرجح القـول المنسـوب إلى السُّـدي، فاستنباط عليل تعوزه الأدلة؛ حيث إن إيراد الطبري لهذا القـول بإسـناده إلى السُّدي لا يقتضي ترجيحًا له.
وقال الكيَّال في "الدليل المختار" (ص38): "غير أنه القول الـذي يوافـق ظاهر الدليل والآية لذلك رجَّحه السُّـدِّي، ورواه الطـبري عنـه ولم ينكـره

عليـه ولا علَّق عليـه، بـل رواه من غـير نكـير، وكأنـه يلمح إلى اختيـاره واكتفى به مع قول آخر ضعيف قد بيَّن ضعفه".

قلت: لم يصح الإسناد إلى السُّدِّي كما ظهر لك، فلا يقـال إن السُّدِّي رجَّحه، ورواية الطبري عنه القـول دون أن يتعقبـه، لا يلزم منه إقراره له، بل هذا إلزام بما لا يلزم.

وأما إيراده القول الآخر بصيغة التضعيف، لا يلـزم منـه كـذلك ترجيحه القول الأول.

وقال القرطبي في "الجـامع لأحكـام القـرآن" (20/96): "أَيْ: غَـافِلًا عَمَّا يُرَادُ بِكَ مِنْ أَمْرِ النُّبُوَّةِ، فَهَدَاكَ: أَيْ أَرْشَدَكَ. وَالضَّلَالُ هُنَـا بِمَعْنَى الْغَفْلَـةِ، كَقَوْلِهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ: لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى [طه: 52] أَيْ لَا يَغْفُلُ. وَقَالَ فِي حَقِّ نَبِيِّهِ: {وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغـافِلِينَ} [يوسـف: 3]. وَقَـالَ قَـوْمٌ: ضَالًّا لَمْ تَكُنْ تَدْرِي الْقُـرْآنَ وَالشَّـرَائِعَ، فَهَـدَاكَ اللَّهُ إِلَى الْقُـرْآنِ، وَشَـرَائِعِ الْإِسْلَامِ، عَنِ الضَّحَّاكِ وَشَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ وَغَيْرِهِمَا. وَهُوَ معنى قَوْلُهُ تَعَالَى: {مَـا كُنْتَ تَـدْرِي مَـا الْكِتَـابُ وَلَا الْإِيمَـانُ}، عَلَى مَـا بَيَّنَّا فِي سُـورَةِ" الشُّورَى". وَقَالَ قَوْمٌ: وَوَجَدَكَ ضَالًّا أَيْ فِي قَوْمٍ ضُلَّالٍ، فَهَـدَاهُمُ اللَّهُ بِـكَ. هَذَا قَوْلُ الْكَلْبِيِّ وَالْفَرَّاءِ. وَعَنِ السُّدِّيِّ نَحْوُهُ، أَيْ وَوَجَدَ قَوْمَكَ فِي ضَـلَالٍ، فَهَـدَاكَ إِلَى إِرْشَـادِهِمْ. وَقِيـلَ: وَوَجَـدَكَ ضَـالًّا عَنِ الْهِجْـرَةِ، فَهَـدَاكَ إِلَيْهَـا. وَقِيلَ: ضَالًّا أَيْ نَاسِيًا شَأْنَ الِاسْتِثْنَاءِ حِينَ سُئِلْتَ عَنْ أَصْحَابِ الْكَهْـفِ وَذِي الْقَرْنَيْنِ وَالرُّوحِ- فَـأَذْكَرَكَ، كمـا قـال تعـالى: أَنْ تَضِـلَّ إِحْـداهُما [البقـرة: 282]. وَقِيلَ: وَوَجَـدَكَ طَالِبًـا لِلْقِبْلَـةِ فَهَـدَاكَ إِلَيْهَـا، بَيَانُـهُ: قَـدْ نَـرى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّماءِ ... [البقرة: 144] الْآيَةَ. وَيَكُونُ الضَّلَالُ بِمَعْنَى الطَّلَبِ، لِأَنَّ الضَّالَّ طَالِبٌ. وَقِيلَ: وَوَجَدَكَ مُتَحَيِّرًا عَنْ بَيَانِ مَا نَزَلَ عَلَيْـكَ، فَهَـدَاكَ إِلَيْـهِ، فَيَكُـونُ الضَّـلَالُ بِمَعْنَى التَّحَيُّرِ؛ لِأَنَّ الضَّـالَّ مُتَحَيِّرٌ. وَقِيـلَ: وَوَجَـدَكَ ضَـائِعًا فِي قَوْمِـكَ، فَهَـدَاكَ إِلَيْـهِ، وَيَكُـونُ الضَّـلَالُ بِمَعْنَى الضَّيَاعِ. وَقِيـلَ: وَوَجَدَكَ مُحِبًّا لِلْهِدَايَةِ، فَهَدَاكَ إِلَيْهَـا، وَيَكُـونُ الضَّـلَالُ بِمَعْنَى الْمَحَبَّةِ. وَمِنْـهُ قَوْلُـهُ تَعَـالَى: قـالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَـلالِكَ الْقَـدِيمِ [يوسـف: 95] أَيْ فِي مَحَبَّتِكَ. قَالَ الشَّاعِرُ:

هَذَا الضَّلَالُ أَشَابَ مِنِّي الْمَفْرِقَا ... وَالْعَارِضَيْنِ وَلَمْ أَكُنْ مُتَحَقِّقَا

عَجَبًا لِعَزَّةَ فِي اخْتِيَارِ قَطِيعَتِي ... بَعْدَ الضَّلَالِ فَحَبْلُهَا قَدْ أَخْلَقَا

وَقِيلَ:" ضَالًّا" فِي شِعَابِ مَكَّةَ، فَهَدَاكَ وَرَدَّكَ إِلَى جَدِّكَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ضَلَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ صَغِيرٌ فِي شِـعَابِ مَكَّةَ، فَرَآهُ أَبُو جَهْلٍ مُنْصَـرِفًا عَنْ أَغْنَامِـهِ، فَـرَدَّهُ إِلَى جَـدِّهِ عَبْـدِ الْمُطَّلِبِ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِ بِذَلِكَ، حِينَ رَدَّهُ إِلَى جَدِّهِ عَلَى يَدَيْ عَدُوِّهِ. وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ مَـعَ عَمِّهِ أَبِي طَـالِبٍ فِي سَـفَرٍ، فَأَخَـذَ إِبْلِيسُ بِزِمَامِ النَّاقَةِ فِي لَيْلَةٍ ظَلْمَاءَ، فَعَدَلَ بِهَا عَنِ الطَّرِيقِ، فَجَـاءَ جِبْرِيـلُ عَلَيْـهِ السَّـلَامُ، فَنَفَخَ إِبْلِيسَ نَفْخَـةً وَقَـعَ مِنْهَـا إِلَى أَرْضِ الْهِنْـدِ، وَرَدَّهُ إِلَى

الْقَافِلَـةِ، فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْـهِ بِـذَلِكَ. وَقَـالَ كَعْبُ: إِنَّ حَلِيمَـةَ لَمَّا قَضَـتْ حَـقَّ الرَّضَـاعِ، جَـاءَتْ بِرَسُـولِ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ لِتَـرُدَّهُ علي عبـد المطلب، فَسَمِعَتْ عِنْدَ بَابِ مَكَّةَ: هَنِيئًا لَكِ يَا بَطْحَاءَ مَكَّةَ، الْيَوْمَ يُرَدُّ إِلَيْـكِ النُّورُ وَالدِّينُ وَالْبَهَاءُ وَالْجَمَالُ. قَالَتْ: فَوَضَعْتُهُ لِأُصْلِحَ ثِيَابِي، فَسَمِعْتُ هَدَّةً شَدِيدَةً، فَالْتَفَتُّ فَلَمْ أَرَهُ، فَقُلْتُ: مَعْشَرَ الناس، أين الصبي؟ فقال: لم نر شيئا، فصحت: وا محمداه! فَإِذَا شَيْخٌ فَانٍ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَاهُ، فَقَالَ: اذْهَبِي إِلَى الصَّـنَمِ الْأَعْظَمِ، فَـإِنْ شَـاءَ أَنْ يَـرُدَّهُ عَلَيْـكِ فَعَـلَ. ثُمَّ طَـافَ الشَّـيْخُ بِالصَّـنَمِ، وَقَبَّلَ رَأْسَـهُ وَقَـالَ: يَـا رَبِّ، لَمْ تَـزَلْ مِنَّتُـكَ عَلَى قُـرَيْشٍ، وَهَـذِهِ السَّعْدِيَّةُ تَـزْعُمُ أَنَّ ابْنَهَـا قَـدْ ضَـلَّ، فَـرُدَّهُ إِنْ شِـئْتَ. فَـانْكَبَّ (هُبَـلُ) عَلَى وَجْهِهِ، وَتَسَاقَطَتِ الْأَصْنَامُ، وَقَالَتْ: إِلَيْـكَ عنـا أيهـا الشـيخ، فهلا كنـا عَلَى يَدَيْ مُحَمَّدٍ. فَأَلْقَى الشَّيْخَ عَصَـاهُ، وَارْتَعَـدَ وَقَـالَ: إِنَّ لِابْنِـكِ رَبًّا لَا يُضَـيِّعُهُ، فَاطْلُبِيـهِ عَلَى مَهَـلٍ. فَانْحَشَـرَتْ قُـرَيْشٌ إِلَى عَبْـدِ الْمُطَّلِبِ، وَطَلَبُـوهُ فِي جَمِيعِ مَكَّةَ، فَلَمْ يَجِدُوهُ. فَطَافَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِالْكَعْبَـةِ سَـبْعًا، وَتَضَـرَّعَ إِلَى اللَّهِ أَنْ يَرُدَّهُ، وَقَالَ:

يَا رَبِّ رُدَّ وَلَدِي مُحَمَّدًا ... ارْدُدْهُ رَبِّي وَاتَّخِذْ عِنْدِي يَدَا
يَا رَبِّ إِنْ مُحَمَّدٌ لَمْ يُوجَدَا ... فَشَمْلُ قَوْمِي كُلِّهِمْ تَبَدَّدَا

فَسَمِعُوا مُنَادِيًا يُنَادِي مِنَ السَّمَاءِ: مَعَاشِـرَ النَّاسِ لَا تَضِـجُّوا، فَـإِنَّ لِمُحَمَّدٍ رَبًّا لَا يَخْذُلُـهُ وَلَا يُضَـيِّعُهُ، وَإِنَّ مُحَمَّدًا بِـوَادِي تِهَامَـةَ، عِنْـدَ شَـجَرَةِ السَّـمُرِ. فَسَارَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ هُوَ وَوَرَقَةُ بْنُ نَوْفَلٍ، فَإِذَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ قَائِمٌ تَحْتَ شَـجَرَةٍ، يَلْعَبُ بِالْأَغْصَـانِ وَبِـالْوَرَقِ. وَقِيـلَ: وَوَجَـدَكَ ضَـالًّا لَيْلَـةَ الْمِعْرَاجِ، حِينَ انْصَرَفَ عَنْكَ جِبْرِيـلُ وَأَنْتَ لَا تَعْـرِفُ الطَّرِيـقَ، فَهَـدَاكَ إِلَى سَاقِ الْعَرْشِ. وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الْوَرَّاقُ وَغَيْرُهُ: وَوَجَدَكَ ضَالًّا: تُحِبُّ أَبَا طَالِبٍ، فَهَدَاكَ إِلَى مَحَبَّةِ رَبِّكَ. وَقَالَ بَسَّامُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: وَوَجَـدَكَ ضَـالًّا بِنَفْسِـكَ لَا تَدْرِي مَنْ أَنْتَ، فَعَرَّفَكَ بِنَفْسِـكَ وَحَالِـكَ. وَقَـالَ الْجُنَيْـدِيُّ: وَوَجَـدَكَ مُتَحَيِّرًا فِي بَيَانِ الْكِتَابِ، فَعَلَّمَـكَ الْبَيَـانَ، بَيَانَـهُ: لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَـا نُـزِّلَ إِلَيْهِمْ «1» [النحـل: 44] ... الآيـة. لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُـوا فِيـهِ «2» [النحـل: 64]. وَقَـالَ بَعْضُ الْمُتَكَلِّمِينَ: إِذَا وَجَـدَتِ الْعَـرَبُ شَـجَرَةً مُنْفَـرِدَةً فِي فَلَاةٍ مِنَ الْأَرْضِ، لَا شَجَرَ مَعَهَا، سَمَّوْهَا ضَالَّةً، فَيُهْتَدَى بِهَا إِلَى الطَّرِيقِ، فقـال اللـه تعالى لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ: وَوَجَـدَكَ ضَـالًّا أَيْ لَا أَحَـدَ عَلَى دِينِكَ، وَأَنْتَ وَحِيـدٌ لَيْسَ مَعَـكَ أَحَـدٌ، فَهَـدَيْتُ بِـكَ الْخَلْـقَ إِلَيَّ. قُلْتُ: هَـذِهِ الْأَقْوَالُ كُلُّهَا حِسَانٌ، ثُمَّ مِنْهَا مَا هُوَ مَعْنَوِيٌّ، وَمِنْهَا مَا هُـوَ حِسِّـيٌّ. وَالْقَـوْلُ الْأَخِيرُ أَعْجَبُ إِلَيَّ، لِأَنَّهُ يَجْمَعُ الْأَقْوَالَ الْمَعْنَوِيَّةَ. وَقَالَ قَـوْمٌ: إِنَّهُ كَـانَ عَلَى جُمْلَةِ مَا كَـانَ الْقَـوْمُ عَلَيْـهِ، لَا يُظْهِـرُ لَهُمْ خِلَافًـا عَلَى ظَـاهِرِ الْحَـالِ، فَأَمَّا الشِّرْكُ فَلَا يُظَنُّ بِهِ، بَلْ كَانَ عَلَى مَرَاسِمِ الْقَوْمِ فِي الظَّاهِرِ أَرْبَعِينَ سَنَةً.

وَقَـالَ الْكَلْبِيُّ وَالسُّـدِّيُّ: هَـذَا عَلَى ظَـاهِرِهِ، أَيْ وَجَـدَكَ كَـافِرًا وَالْقَوْمُ كُفَّارٌ فَهَدَاكَ.

وَقَدْ مَضَى هَذَا الْقَوْلُ وَالرَّدُّ عَلَيْهِ فِي سُورَةِ" الشُّورَى".
وَقِيلَ: وَجَدَكَ مَغْمُورًا بِأَهْلِ الشِّرْكِ، فَمَيَّزَكَ عَنْهُمْ. يُقَالُ: ضَلَّ الماء في اللبن، ومنه أَإِذا ضَلَلْنا فِي الْأَرْضِ [السجدة: 10] أَيْ: لَحِقْنَا بِالتُّرَابِ عِنْدَ الدَّفْنِ، حَتَّى كَأَنَّا لَا نَتَمَيَّزُ مِنْ جُمْلَتِهِ. وَفِي قِرَاءَةِ الْحَسَنِ وَوَجَدَكَ ضَالٌّ فَهَدَى أَيْ وَجَدَكَ الضَّالُّ فَاهْتَدَى بِكَ، وَهَذِهِ قِرَاءَةٌ عَلَى التَّفْسِيرِ. وَقِيلَ: وَوَجَدَكَ ضَالًّا لَا يَهْتَدِي إِلَيْكَ قَوْمُكَ، وَلَا يَعْرِفُونَ قَدْرَكَ، فَهَدَى الْمُسْلِمِينَ إِلَيْكَ، حَتَّى آمَنُوا بِكَ".اهـ
وقال أثير الدين أبو حيَّان محمد بن يوسف بن حيَّان (ت 745 ه) في البحر المحيط (21/396/الرسالة العالمية): **"لَا يُمْكِنُ حَمْلُهُ عَلَى الضَّلَالِ الَّذِي يُقَابِلُهُ الْهُدَى؛ لِأَنَّ الْأَنْبِيَاءَ مَعْصُومُونَ مِنْ ذَلِكَ.**
قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هُوَ ضَلَالُهُ وَهُوَ فِي صِغَرِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ، ثُمَّ رَدَّهُ اللَّهُ إِلَى جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَقِيلَ: ضَلَالُهُ مِنْ حَلِيمَةَ مُرْضِعَتِهِ. وَقِيلَ: ضَلَّ فِي طَرِيقِ الشَّامِ حِينَ خَرَجَ بِهِ أَبُو طَالِبٍ، وَلِبَعْضِ الْمُفَسِّرِينَ أَقْوَالٌ فِيهَا بَعْضُ مَا لَا يَجُوزُ نِسْبَتُهُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَلَقَدْ رَأَيْتُ فِي النَّوْمِ أَنِّي أُفَكِّرُ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ فَأَقُولُ عَلَى الْفَوْرِ:
وَوَجَدَكَ، أَيْ وَجَدَ رَهْطَكَ، ضَالًّا، فَهَدَاهُ بِكَ. ثُمَّ أَقُولُ: عَلَى حَذْفِ مضاف، نحو: وَسْئَلِ الْقَرْيَةَ".
وقال أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي في "التفسير البسيط" (24/109): "قال الحسن والضحاك وشهر بن حوشب: ووجدك ضالاً عن معالم النبوة وأحكام الشريعة غافلاً عنها فهداك إليها، دليله قوله تعالى: {وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغافِلِينَ}، وقوله: {مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ}.
وهذا مذهب أرباب الأصول وعلماء أصحابنا على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان كافرًا قط.
واختار أبو إسحاق أيضًا هذا القول فقال: معناه أنه لم يكن يدري ما القرآن ولا الشرائع، فهداه الله إلى القرآن وشرائع الإسلام".اهـ
وقال ابن جُزَيْ في "التسهيل لعلوم التنزيل" (2/491): "{وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى}، فيه ستة أقوال: أحدها: وجدك ضالاً عن معرفة الشريعة فهداك إليها، فالضلال عبارة عن التوقيف [السؤال] في أمر الدين حتى جاءه الحق من عند الله، فهو كقوله: ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ [الشورى: 52]، وهذا هو الأظهر وهو الذي اختاره ابن عطية وغيره، ومعناه: أنه لم يكون يعرف تفصيل الشريعة وفروعها حتى بعثه الله، ولكنه ما كفر بالله ولا أشرك به لأنه كان معصومًا من ذلك قبل النبوة وبعدها.
والثاني: وجدك في قوم ضلّال، فكأنك واحد منهم، وإن لم تكن تعبد ما يعبدون، وهذا قريب من الأول.

والثالث: وجدك ضالا عن الهجرة فهداك إليها، وهذا ضعيف، لأن السورة نزلت قبل الهجرة.
الرابع: وجدك خامل الذكر لا تعرف، فهدى الناس إليك وهداهم بك، وهذا بعيد عن المعنى المقصود.
الخامس: أنه من الضلال عن الطريق، وذلك أنه صلى الله عليه وآله وسلم ضلّ في بعض شعب مكة، وهو صغير فردّه الله إلى جده، وقيل: بل ضلّ من مرضعته حليمة فرده الله إليها، وقيل: بل ضل في طريق الشام حين خرج إليها مع أبي طالب.
السادس: أنه بمعنى الضلال من المحبة أي وجدك محبًا لله فهداك إليه ومنه قول إخوة يوسف لأبيهم، تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلالِكَ الْقَدِيمِ أي محبتك ليوسف، وبهذا كان يقول شيخنا الأستاذ أبو جعفر بن الزبير".
وقال أبو زيد عبدالرحمن الثعالبي في "الجواهر الحسان في تفسير القرآن" (5/602): "وقوله تعالى: وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدى اخْتَلَفَ الناسُ في تأويلِهِ، والضلالُ يَخْتَلِفُ، فمنه البعيدُ ومنه القريبُ فالبعيدُ ضلالُ الكفَّارِ، وهذا قَدْ عَصَمَ الله منه نبيّه **فلم يعبد صلّى الله عليه وسلّم صَنَماً قط، ولا تَابعَ الكفارَ على شيءٍ مما هم عليه من الباطل**، وإنما ضلالُه صلّى الله عليه وسلّم هو كَوْنُهُ واقفاً لا يَميزُ المَهْيَعَ، بل يُدَبِّرُ وَيَنْظُر، وقال الترمذي وعبد العزيز بن يحيى: ضَالًّا معناه: خاملُ الذِّكْرِ لا يعرفُك الناسُ فهداهُم إليكَ ربُّك، والصوابُ أنه ضلالُ من توقّف لا يدري، كما قال عز وجل: مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتابُ وَلَا الْإِيمانُ [الشورى: 52]".
وقال إسماعيل حقّي (ت 1127 ه) في "روح البيان" (10/457): "وَوَجَدَكَ ضَالًّا معنى الضلال فقدان الشرائع والخلو عن الاحكام التي لا يهتدى إليها العقول بل طريقها السماع كما فى قوله تعالى ما كنت تدرى ما الكتاب".
وقال الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السّعدي في تفسيره (ص928): "{وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى} أي: وجدك لا تدري ما الكتاب ولا الإيمان، فعلمك ما لم تكن تعلم، ووفقك لأحسن الأعمال والأخلاق".
قال السفاريني في "لوامع الأنوار البهية" (2/305): "لَمْ يَكُنْ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَبْلَ الْبَعْثَةِ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ، بَلْ وُلِدَ مُسْلِمًا مُؤْمِنًا كَمَا قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ وَغَيْرُهُ، قَالَ فِي نِهَايَةِ الْمُبْتَدِئِينَ: قَالَ ابْنُ عَقِيلٍ: لَمْ يَكُنْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عَلَى دِينٍ سِوَى الْإِسْلَامِ، وَلَا كَانَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ قَطُّ، بَلْ وُلِدَ نَبِيُّنَا مُؤْمِنًا صَالِحًا عَلَى مَا كَتَبَهُ اللَّهُ وَعَلِمَهُ مِنْ حَالِهِ. انْتَهَى".
وقال القاضي عياض في "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" (2/109): "وَأَمَّا عِصْمَتُهُمْ مِنْ هَذَا الْفَنِّ قَبْلَ النُّبُوَّةِ فَلِلنَّاسِ فِيهِ خِلَافٌ **وَالصَّوَابُ**

أَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ قَبْلَ النبوة من الجهل بالله وصفاته والتشكيك فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ.
وَقَدْ تَعَاضَدَتِ الْأَخْبَارُ وَالْآثَارُ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ بِتَنْزِيهِهِمْ عَنْ هَذِهِ النَّقِيصَةِ مُنْذُ وُلِدُوا، وَنَشْأَتِهِمْ عَلَى التَّوْحِيدِ وَالْإِيمَانِ".
وقال عبد الباقي بن عبد القادر البعلي الأزهري الدمشقيّ، تقيّ الدين، ابن فَقِيه فُصَّة (ت 1071هـ) في "العين والأثر في عقائد أهل الأثر" (ص 47):ـ "والأنبياء متفاوتون في الفضيلة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم حقٌّ إلى الإنس والجن، وهو خاتم الأنبياء وأفضلهم، ولم يكن قبل البعثة على دين قومه، بل ولد مسلمًا مؤمنًا".
قلت: وإليك قول الإمام أحمد –رحمه الله- في هذه المسألة الشائكة:
قال الخلال في السنة (213) أَخْبَرَنِي عِصْمَةُ بْنُ عِصَامٍ الْعُكْبَرِيُّ، قَالَ: ثَنَا حَنْبَلُ بْنُ إِسْحَاقَ، قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ؟ فَقَالَ: " هَذَا قَوْلُ سُوءٍ، يَنْبَغِي لِصَاحِبِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ تَحَذُّرَ كَلَامَهُ، وَلَا يُجَالَسُ، قُلْتُ لَهُ: إِنَّ جَارَنَا النَّاقِدَ أَبُو الْعَبَّاسِ يَقُولُ هَذِهِ الْمَقَالَةُ؟ فَقَالَ: قَاتَلَهُ اللَّهُ، أَيُّ شَيْءٍ أَبْقَى إِذَا زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ وَهُمْ يَعْبُدُونَ الْأَصْنَامَ، وَقَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَبَشَّرَ بِهِ عِيسَى، فَقَالَ: اسْمُهُ أَحْمَدُ، قُلْتُ لَهُ: وَزَعَمَ أَنَّ خَدِيجَةَ كَانَتْ عَلَى ذَلِكَ حِينَ تَزَوَّجَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: أَمَّا خَدِيجَةُ فَلَا أَقُولُ شَيْئًا، قَدْ كَانَتْ أَوَّلَ مَنْ آمَنَ بِهِ مِنَ النِّسَاءِ، ثُمَّ مَاذَا يُحَدِّثُ النَّاسُ مِنَ الْكَلَامِ، هَؤُلَاءِ أَصْحَابُ الْكَلَامِ، مَنْ أَحَبَّ الْكَلَامَ لَمْ يُفْلِحْ، سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ لِهَذَا الْقَوْلِ، وَاسْتَعْظَمَ ذَلِكَ وَاحْتَجَّ فِي ذَلِكَ بِكَلَامٍ لَمْ أَحْفَظْهُ، وَذَكَرَ أُمَّهُ حَيْثُ وَلَدَتْ رَأَتْ نُورًا، أَفَلَيْسَ هَذَا عِنْدَمَا وَلَدَتْ رَأَتْ هَذَا وَقَبْلَ أَنْ يُبْعَثَ كَانَ طَاهِرًا مُطَهَّرًا مِنَ الْأَوْثَانِ، أَوَ لَيْسَ كَانَ لَا يَأْكُلُ مَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ، ثُمَّ قَالَ: احْذَرُوا أَصْحَابَ الْكَلَامِ، لَا يَئُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى خَيْرٍ"[3].
قال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (8/109):ـ "وقوله: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ} يَعْنِي: التَّوْرَاةُ قَدْ بَشَّرَت بِي، وَأَنَا مصداقُ مَا أَخْبَرَتْ عَنْهُ، وَأَنَا مُبَشّر بِمَنْ بَعْدِي، وَهُوَ الرَّسُولُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الْعَرَبِيُّ الْمَكِّيُّ أَحْمَدُ. فَعِيسَى، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُوَ خَاتَمُ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَدْ أَقَامَ فِي مَلَإِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَشِّرًا بِمُحَمَّدٍ، وَهُوَ أَحْمَدُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، الَّذِي لَا رِسَالَةَ بَعْدَهُ

---

[3] وانظر "الجامع لعلوم الإمام أحمد" (4/102).
قلت: عِصْمَةُ بْنُ عِصَامٍ الْعُكْبَرِيُّ، ترجم له الخطيب في "تاريخ مدينة الإسلام" (14/228)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلاً.

وَلَا نُبُوَّةَ"، ثم قال: " وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَـالَى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِيَّ الأمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًـا عِنْـدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإنْجِيـلِ} [الْأَعْـرَافِ: 157] وَقَـالَ تَعَـالَى: {وَإِذْ أَخَـذَ اللَّهُ مِيثَـاقَ النَّبِيِّينَ لَمَـا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَـابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُـولٌ مُصَـدِّقٌ لِمَـا مَعَكُمْ لَتُـؤْمِنُنَّ بِـهِ وَلَتَنْصُـرُنَّهُ قَـالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَـالَ فَاشْـهَدُوا وَأَنَـا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [آلِ عِمْرَانَ: 81]

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا أَخَذَ عَلَيْهِ الْعَهْدَ: لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُـوَ حَيٌّ لَيَتَّبِعَنَّهُ، وَأَخَـذَ عَلَيْـهِ أَنْ يَأْخُـذَ عَلَى أُمَّتِـهِ لَئِنْ بُعِثَ مُحَمَّدٌ وَهُمْ أَحْيَـاءٌ لَيَتَّبِعُنَّهُ وَيَنْصُرُنَّهُ".اهـ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في "النبوات" (2/1088): "فالأنبياء يُصدِّقُ متأخِّرُهم مُتقدّمهم، ويُبشِّر متقدّمُهم بمتأخِّرِهم؛ كما بَشَّـرَ المسـيح ومن قَبْلَهُ بمحمّدٍ، وكما صدّق محمّدٌ جميع النّبيّين قبلَهُ".

قلت: فكيف يؤخذ الميثاق -قبل مولد النبي صلى الله عليه وسلم وبعثته- على جميع الرسل والأنبياء بالإيمان به ونصرته، ثم يبَشَـر بـه في التـوراة والإنجيل، ثم يولد صلى اللـه عليـه وسـلم ويعيش كـافرًا على دين قومـه أربعين سـنة، وكـأن البعثـة أتت إليـه صـلى اللـه عليـه وسـلم فجـأة دون ترتيب مسبق في قدر الله عز وجل، وكأن الاصطفاء له صلى اللـه عليـه وسلم تمَّ فجأة دون هذه الممهدات لبعثته في الرسالات السابقة؟!

وأمّا دعواه أن شيخ الإسلام ابن تيمية يقرّر هذا القـول الباطـل، فهـذا مـا فهمـه من متشـابه كلام شـيخ الإسـلام، وإلا فـإن شـيخ الإسـلام لـه كلام محكم في بطلان هذا الفهم؛ حيث سئل شيخ الإسـلام كمـا في "مجمـوع الفتاوى" (27/501): "مَا قَوْلُ أَئِمَّةِ الدِّينِ فِي تَعَبُّدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا هُوَ؟ وَكَيْفَ كَانَ قَبْلَ مَبْعَثِهِ؟ أَفْتُونَا مَأْجُورِينَ.

فأجاب: "الْحَمْدُ لِلَّهِ، هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ مِمَّا لَا يُحْتَاجُ إلَيْهَـا فِي شَـرِيعَتِنَا. فَإِنَّمَـا عَلَيْنَا أَنْ نُطِيعَ الرَّسُولَ فِيمَا أَمَرَنَا بِهِ وَنَقْتَدِيَ بِهِ بَعْدَ إرْسَالِهِ إلَيْنَا. وَأَمَّا مَـا كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ مِثْلَ تَحَنُّثِهِ بِغَارِ حِرَاءَ وَأَمْثَالِ ذَلِكَ: فَهَذَا لَيْسَ سُنَّةً مَسْـنُونَةً لِلْأُمَّةِ؛ فَلِهَذَا لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنْ الصَّحَابَةِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ يَـذْهَبُ إلَى غَـارِ حِـرَاءَ وَلَا يَتَحَرَّى مِثْلَ ذَلِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا يُشْرَعُ لَنَا بَعْدَ الْإِسْلَامِ أَنْ نَقْصِدَ غِيرَانَ الْجِبَالِ وَلَا نَتَخَلَّى فِيهَا؛ بَلْ يُسَنُّ لَنَـا الْعُكُـوفُ بِالْمَسَـاجِدِ سُـنَّةً مَسْـنُونَةً لَنَـا. وَأَمَّا قَصْدُ التَّخَلِّي فِي كُهُوفِ الْجِبَالِ وَغِيرَانِهَا وَالسَّفَرِ إلَى الْجَبَلِ لِلْبَرَكَـةِ: مِثْـلَ جَبَلِ الطُّورِ وَجَبَلِ حِرَاءَ وَجَبَلِ يَثْرِبَ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ: فَهَذَا لَيْسَ بِمَشْرُوعٍ لَنَـا؛ بَلْ قَدْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {لَا تُشَدُّ الرِّحَالُ إلَّا إلَى ثَلَاثَةِ مَسَاجِدَ}.

وَقَـدْ كَـانَ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ قَبْـلَ الْبَعْثَـةِ يَحُجُّ وَيَتَصَـدَّقُ وَيَحْمِلُ الْكُلَّ وَيَقْرِي الضَّيْفَ وَيُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ وَلَمْ يَكُنْ عَلَى دِينِ قَوْمِهِ الْمُشْـرِكِينَ؛ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَعَلَى أَصْـحَابِهِ وَسَـلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا".اهـ

قلت: وأما كلام شيخ الإسلام –رحمه الله- الذي اعتبره الكيَّال تأصيلاً لقوله، فلا حجة فيه أمام الحجج التي سردناها في هذا المبحث؛ حيث إن شيخ الإسلام يؤصل لمسألة عامة، تندرج مسألتنا تحتها من جهة العموم لا من جهة التعيين والتخصيص؛ حيث إن كلام شيخ الإسلام كان إجابة على السؤال التالي:

"عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "دَعْوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ: {لَا إلَهَ إلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}، مَا دَعَا بِهَا مَكْرُوبٌ إلَّا فَرَّجَ اللَّهُ كُرْبَتَهُ، مَا مَعْنَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ؟ وَلِمَ كَانَتْ كَاشِفَةً لِلْكَرْبِ؟ وَهَلْ لَهَا شُرُوطٌ بَاطِنَةٌ عِنْدَ النُّطْقِ بِلَفْظِهَا؟ وَكَيْفَ مُطَابَقَةُ اعْتِقَادِ الْقَلْبِ لِمَعْنَاهَا، حَتَّى يُوجِبَ كَشْفَ ضُرِّهِ؟ وَمَا مُنَاسَبَةُ ذِكْرِهِ: {إنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} مَعَ أَنَّ التَّوْحِيدَ. يُوجِبُ كَشْفَ الضُّرِّ؟ وَهَلْ يَكْفِيهِ اعْتِرَافُهُ، أَمْ لَا بُدَّ مِنْ التَّوْبَةِ وَالْعَزْمِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ؟ وَمَا هُوَ السِّرُّ فِي أَنَّ كَشْفَ الضُّرِّ وَزَوَالَهُ يَكُونُ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ عَنْ الْخَلْقِ وَالتَّعَلُّقِ بِهِمْ؟ وَمَا الْحِيلَةُ فِي انْصِرَافِ الْقَلْبِ عَنْ الرَّجَاءِ لِلْمَخْلُوقِينَ وَالتَّعَلُّقِ بِهِمْ بِالْكُلِّيَّةِ وَتَعَلُّقِهِ بِاَللَّهِ تَعَالَى وَرَجَائِهِ وَانْصِرَافِهِ إلَيْهِ بِالْكُلِّيَّةِ، وَمَا السَّبَبُ الْمُعِينُ عَلَى ذَلِكَ؟".

فأجاب –رحمه الله- إجابة طويلة تخلّلها عدة مباحث مهمة، منها: مسألة عصمة الأنبياء قبل وبعد البعثة، حيث قال كما في مجموع الفتاوى (10/292): "وَأَمَّا الْعِصْمَةُ فِي غَيْرِ مَا يَتَعَلَّقُ بِتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ فَلِلنَّاسِ فِيهِ نِزَاعٌ هَلْ هُوَ ثَابِتٌ بِالْعَقْلِ أَوْ بِالسَّمْعِ؟ وَمُتَنَازِعُونَ فِي الْعِصْمَةِ مِنْ الْكَبَائِرِ وَالصَّغَائِرِ أَوْ مِنْ بَعْضِهَا أَمْ هَلْ الْعِصْمَةُ إنَّمَا هِيَ فِي الْإِقْرَارِ عَلَيْهَا لَا فِي فِعْلِهَا؟ أَمْ لَا يَجِبُ الْقَوْلُ بِالْعِصْمَةِ إلَّا فِي التَّبْلِيغِ فَقَطْ؟ وَهَلْ تَجِبُ الْعِصْمَةُ مِنْ الْكُفْرِ وَالذُّنُوبِ قَبْلَ الْمَبْعَثِ أَمْ لَا؟ وَالْكَلَامُ عَلَى هَذَا مَبْسُوطٌ فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ. وَالْقَوْلُ الَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ النَّاسِ وَهُوَ الْمُوَافِقُ لِلْآثَارِ الْمَنْقُولَةِ عَنْ السَّلَفِ إثْبَاتُ الْعِصْمَةِ مِنْ الْإِقْرَارِ عَلَى الذُّنُوبِ مُطْلَقًا وَالرَّدُّ عَلَى مَنْ يَقُولُ إنَّهُ يَجُوزُ إقْرَارُهُمْ عَلَيْهَا، وَحُجَجُ الْقَائِلِينَ بِالْعِصْمَةِ إذَا حُرِّرَتْ إنَّمَا تَدُلُّ عَلَى هَذَا الْقَوْلِ".

قلت: فهذا تأصيل عامٌّ من شيخ الإسلام في بيان جواز وقوع الذنوب مُطْلَقًا من الرسل قبل البعثة، لكن مع عدم جواز إقْرَارهم عَلَيْهَا وبقائهم عليها دون توبة.

وأما ما ذكره الكيَّال في الفائدة الثالثة من الدليل المختار (ص22): "بيان وجه الدلالة التي استدل بها ابن تيمية على أن الله بعث بعض الأنبياء كانوا قبل البعثة كفَّارًا".

فإن هذا التخصيص لم يصرّح به شيخ الإسلام، فلم يقل شيخ الإسلام في حقِّ رسول من الرسل تعيينًا أنه كان كافرًا قبل الرسالة، بل ذكر تأصيلاً عامًّا في إمكانية حدوث هذا شرعًا وعقلاً، حيث قال كما في مجموع الفتاوى (10/309): "وَبِهَذَا يَظْهَرُ جَوَابُ شُبْهَةِ مَنْ يَقُولُ: إنَّ اللَّهَ لَا يَبْعَثُ

نَبِيًّا إِلَّا مَنْ كَانَ مَعْصُومًا قَبْلَ النُّبُوَّةِ كَمَا يَقُولُ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْ الرَّافِضَةِ وَغَيْرِهِمْ وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: إنَّهُ لَا يَبْعَثُ نَبِيًّا إلَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ النُّبُوَّةِ فَإِنَّ هَؤُلَاءِ تَوَهَّمُوا أَنَّ الذُّنُوبَ تَكُونُ نَقْصًا وَإِنْ تَابَ التَّائِبُ مِنْهَا وَهَذَا مَنْشَأُ غَلَطِهِمْ فَمَنْ ظَنَّ أَنَّ صَاحِبَ الذُّنُوبِ مَعَ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ يَكُونُ نَاقِصًا فَهُوَ غالطٌ غَلَطًا عَظِيمًا فَإِنَّ الذَّمَّ وَالْعِقَابَ الَّذِي يَلْحَقُ أَهْلَ الذُّنُوبِ لَا يَلْحَقُ التَّائِبَ مِنْهُ شَيْءٌ أَصْلًا؛ لَكِنْ إنْ قَدَّمَ التَّوْبَةَ لَمْ يَلْحَقْهُ شَيْءٌ وَإِنْ أَخَّرَ التَّوْبَةَ فَقَدْ يَلْحَقُهُ مَا بَيْنَ الذُّنُوبِ وَالتَّوْبَةِ مِنْ الذَّمِّ وَالْعِقَابِ مَا يُنَاسِبُ حَالَهُ. وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ كَانُوا لَا يُؤَخِّرُونَ التَّوْبَةَ؛ بَلْ يُسَارِعُونَ إلَيْهَا وَيُسَابِقُونَ إلَيْهَا؛ لَا يُؤَخِّرُونَ وَلَا يُصِرُّونَ عَلَى الذَّنْبِ بَلْ هُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ ذَلِكَ، وَمَنْ أَخَّرَ ذَلِكَ زَمَنًا قَلِيلًا كَفَّرَ اللَّهُ ذَلِكَ بِمَا يَبْتَلِيهِ بِهِ كَمَا فَعَلَ بِذِي النُّونِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا عَلَى الْمَشْهُورِ أَنَّ إلْقَاءَهُ كَانَ بَعْدَ النُّبُوَّةِ".

قلت: فهذا منشأ الشبهة عند الكيَّال وغيره في كلام شيخ الإسلام، وهي قوله: "وَكَذَلِكَ مَنْ قَالَ: إنَّهُ لَا يَبْعَثُ نَبِيًّا إلَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا قَبْلَ النُّبُوَّةِ"، ولكنه عقَّب بما يبين مقصده، وهي أنه أراد أن وقوع الذنوب من الرسل –ولو كان كفرًا- قبل النبوة، لا تعد نقصًا فيهم إذا تابوا منها، ثم استطرد قائلاً: "وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ كَانُوا لَا يُؤَخِّرُونَ التَّوْبَةَ؛ بَلْ يُسَارِعُونَ إلَيْهَا وَيُسَابِقُونَ إلَيْهَا؛ لَا يُؤَخِّرُونَ وَلَا يُصِرُّونَ عَلَى الذَّنْبِ بَلْ هُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ ذَلِكَ"، فكيف يقال عن رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم –على وجه الخصوص- إنه كان على دين قومه من المشركين أربعين سنة قبل البعثة، رغم تعبده في غار حراء، وامتناعه عن الأكل من ذبائح المشركين، وإخراج علقة الشيطان منه وهو غلام قبل سنّ التكليف ... إلخ الحجج المسرودة في هذا المبحث؟!

وكيف يتركه ربُّه مصرًّا على متابعة قومه في الشرك دون أن يتوب إلى أن نزل الوحي عليه؟

وعلى هذا التأصيل أسأل الكيَّال ومن تابعه سؤالاً: هاتوا لنا نصًّا في توبة النبي صلى الله عليه وسلم من الشرك قبل البعثة؛ لأنه كما قال شيخ الإسلام: "وَالْأَنْبِيَاءُ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَسَلَامُهُ كَانُوا لَا يُؤَخِّرُونَ التَّوْبَةَ؛ بَلْ يُسَارِعُونَ إلَيْهَا وَيُسَابِقُونَ إلَيْهَا؛ لَا يُؤَخِّرُونَ وَلَا يُصِرُّونَ عَلَى الذَّنْبِ بَلْ هُمْ مَعْصُومُونَ مِنْ ذَلِكَ"، فمتى كانت توبته صلى الله عليه وسلم من الشرك؟!

فكيف وقد صرّح شيخ الإسلام بخلاف ذلك فيما نقلته آنفًا؛ حيث قال باللفظ العربي الفصيح: "وَلَمْ يَكُنْ –أي الرسول صلى الله عليه وسلم- عَلَى دِينِ قَوْمِهِ الْمُشْرِكِينَ".

ولذلك أن أرجو من الأخ عيد الكيَّال أن يعيد النظر فيما ادَّعـاه في حقِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن يتوب إلى الله عز وجل من هذا القول الباطل قبل أن يلقى الله عز وجل. والله المستعان وعليه التكلان.

وصلى الله على محمد وعلى آله وأصحابه وسلّم.

وكتب

أبو عبدالأعلى خالد بن محمد بن عثمان المصري

ليلة 11 شوال 1439 ه